# Bilad Al-Sham in the memoirs of Muhammad Al-Senussi the Hejaz journey in 1300AH/1883AD

**Dr. Rabie Othman***

**(Received 4 / 7 / 2022. Accepted 29 / 8 / 2022)**

## □ ABSTRACT □

Muhammad Al-Senussi is considered one of senior graduates of Al- Zaytoonah and He is one of the first Arab thinkers who called for study of modern sciences' and adopting the reasons for progress in order to restore the Arab and Islamic nation to its status and pride , and it is one most prominent Tunisian officials who worked in the government of Khair al-Din al-Tunisi, which sought to establish a series of reform works adimed at saving Tunisia from its financial crisis and removing foreign influence from it , but the efforts of the Tunisian government failed in the end and Tunisia was subjected to Tunisian protection in the year 1298AH/1881AD , so a large number of Tunisian politicians and intellectuals who rejected the French protection were forced to leave Tunisia , among Senussi who was forced to leave his country as a result of being subjected to severe pressure from the French authorities, so he invoked his desire to perform the rituals of Hajj , he accompanied the Shmi Hajj convoy to Damascus, then moved to Beirut and recorded the details of that trip in his book Hijaz Trip , provided a lot of information related to political , economic , social, cultural and urban conditions in levant in the year 1300AH/1883AD .

**Keywords** : Bilad Al-Sham, Al-Senussi, Hejaz journey , Damascus , Beirut.

*Assistant Professor, History department, Faculty of Art, Tishreen University, Lattakia, Syria. Rabieo601@gmail.com

# بلاد الشام في مذكرات محمد السنوسي (الرحلة الحجازية) عام1300هـ / 1883م

**د. ربيع عثمان***

**(تاريخ الإيداع 4 / 7 / 2022. قبل للنشر في 29 / 8 / 2022)**

## □ ملخّص □

يعتبر محمد السنوسي من كبار خريجي جامع الزيتونة ، وهو من أوائل المفكرين العرب الذين دعوا إلى دراسة العلوم الحديثة والأخذ بأسباب التقدم من أجل استعادة الأمة العربية والإسلامية مكانتها وعزتها ، وهو أحد أبرز المسؤولين التونسيين الذين عملوا في حكومة خير الدين التونسي التي سعت إلى إقامة سلسلة من الأعمال الإصلاحية، بهدف إنقاذ تونس من أزمتها المالية ، وإبعاد النفوذ الأجنبي عنها ، لكن مساعي الحكومة التونسية فشلت في النهاية ، وخضعت تونس للحماية الفرنسية في عام 1298هـ / 1881م ، فاضطر عدد من كبار الساسة التونسيين الرافضين للحماية الفرنسية إلى مغادرة تونس ، كان من بينهم محمد السنوسي الذي اضطر إلى مغادرة تونس نتيجة تعرضه لضغط كبير من السلطات الفرنسية ، فتذرع برغبته في أداء فريضة الحج وغادر تونس ، وبعد أدائه شعائر الحج رافق قافلة الحج الشامي .إلى دمشق ، ثم انتقل إلى بيروت ، وسجل تفاصيل تلك الرحلة في كتابه الرحلة الحجازية ، مقدماً الكثير من المعلومات المتعلقة بالأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعمرانية في بلاد الشام في عام 1300هـ / 1883م .

**الكلمات المفتاحية :** بلاد الشام . محمد السنوسي . الرحلة الحجازية . دمشق . بيروت

* **مدرس ، قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة تشرين ، اللاذقية ، سورية Rabieo601@gmail.com**

## مقدمة

احتلت منطقة بلاد الشّام مكانة كبيرة في جميع مراحل التاريخ القديمة والوسطى والحديثة ، وكانت منطقة تجاذب بين القوى الكبرى التي سعت للسيطرة عليها ، لما تملكه من مزايا تتعلّق بالنواحي السياسية والاقتصادية والإستراتيجية والدينية ، وازدادت أهمية بلاد الشام في الفترة العثمانية لأسبابٍ عدّة منها وقوع بلاد الشام في قلب الدولة العثمانية ، وتحكمها بطرق المواصلات البرية للدولة العثمانية مع ولاياتها العربية ، وخاصة المؤدّية إلى الحجاز حيث الأماكن المقدسة ، وأيضاً قُرب هذه المنطقة من العاصمة العثمانية ، مما منحها أهمية خاصة لدى سلاطين آل عثمان ، فاستقرارها يعني استقرار العاصمة استانبول ، والعكس صحيح .

## أهمية البحث وأهدافه

حظيت بلاد الشام باهتمام كبير من قبل الرحالة العرب والأجانب الذين كانوا حريصين على زيارة هذه المنطقة ، نظراً لما تمتلكه من مزايا تتعلق بالنواحي السياسية والاقتصادية والإستراتيجية ، وتعتبر كتب الرحلات من أهم المصادر التاريخية ، لكون هذه الكتابات تقدم للباحثين معلومات غنية ووفيرة تخدم جميع فروع المعرفة، لأنَّ الرّحالة يسجّلون معلوماتهم بناءً على مشاهداتهم المباشرة على أرض الواقع ، وعلى اتصالهم المباشر بالناس ورجال السياسة والعلم والدين ، ولهذا يهدف البحث إلى دراسة أوضاع بلاد الشام من خلال ما دونه الرحالة محمد السنوسي الذي رافق قافلة الحج الشامي خلال عودتها من رحلة الحج عام 1300هـ / 1883م ، ودوّن الكثير من المعلومات الهامة المتعلقة ببعض النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعمرانية ، والتي لا نجد ذكر لها في المصادر التاريخية الأخرى ، خصوصاً من الناحية الثقافية والاجتماعية .

**منهجية البحث :**

اعتمد البحث على المنهج العلمي التاريخي القائم على الالتزام بقواعد منهجية البحث التاريخي ، سواء ما يتعلّق بالمعرفة التاريخية المنظمة القائمة على التوثيق والمعالجة الموضوعية المستندة إلى النقد والتحليل ، أو فيما يتعلق بالصياغة والتركيب التاريخي الصحيح ، دون إهمال الجانب الوصفي في دراسة الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعمرانية في بلاد الشام من خلال ما دونه محمد السنوسي في كتابه الرحلة الحجازية ، لتقديم البحث بشكل علمي مدروس .

**أولاً . أهميّة كُتب الرّحلات في تدوّين التاريخ :**

إن كلمة الرّحلة في اللغة العربية مشتقة من مصطلح الترّحال والارتحال ، فالرّحلةُ تعني السير في الأرض ، وكذلك جاءت الرّحلة بمعنى الارتحال أي الانتقال من مكان إلى آخر ، وجاءت أيضاً بمعنى الجهة التي يقصدها المسافر[1]، وتختلف أغراض الرّحلات ودوافعها باختلاف الأغراض الإنسانية [2] ، إلا أنها في الغالب لا تخرج عن أنْ تكون لدوافعَ دينيةٍ ، كأنْ يرتحل الإنسان من أجل القيام بزيارة الأماكن المقدسة رغبة منه في أداء واجبه الديني ، أو لدوافعَ علميّةٍ

---

**([1]) أحمد ، رمضان أحمد ، الرحلة والرحالة المسلمون ، دار البيان العربي ، جدة ، (د.ت) ، ص7 .**

**([2]) زيادة ، معن ، الرّحلات العربية والرحالات ، مجلة الفكر العربي ، بيروت ، العدد 51 ، السنة التاسعة ، 1988، ص4.**

بهدفِ طَلَب العلم ، فقد جاء في الحديث النبوي الشريف " اطلب العلم ولو في الصين" [3]، أو لدوافعَ سياسيّةٍ ، كالوفود والسفارات التي تجري بين الدول، وذلك لتبادل الرأي ووجهات النظر وتوطيد العلاقات ومناقشة القضايا والمسائل المشتركة فيما بينها ، أو لدوافعَ اقتصاديةٍ بقَصْد التجارة ، أو لدوافعَ صحيّةٍ كالسفر للعلاج من بعض الأمراض ، أو لدوافعَ سياحيةٍ رغبةً في تغيير الأجواء ، والتعرّف على مناطقَ جديدةٍ وعلى حضاراتِ الشعوبِ وتاريخِها.

تعد كتب الرحلة أو أدب الرحلات من أهم المصادر العلمية في تدوين التاريخ بالنسبة للمؤرخين والباحثين في هذا المجال ، لما تحمله بين صفحاتها من معلومات قيمة قلما نجدها في المصادر التاريخية الأخرى ، وقد قام الكثير من الرّحالة بتدوّين أخبار أسفارهم ورحلاتهم ، وتعددت الأسباب التي دفعتهم للقيام بذلك ، فالبعض قام بتدوّين أخبار رحلته تنفيذاً لرغبة الحاكم ، أو برغبة الرّحالة أنفسهم في إفادة الناس حيث تكون تلك الرّحلة دليلاً يساعد المسافرين في التعرّف على الطرق ، كالطريق إلى الديار المقدّسة ، وكذلك لإبراز تاريخ البلدان وحضارتها وشعوبها، والتعريف بالبلدان الغريبة ، وإبراز معالمها وعجائبها وعاداتها وتقاليدها .

وبرز العديد من الرّحالة العرب الذين قاموا برّحلات كثيرة ، لم تقتصر على زيارة البلدان الإسلامية فحسب ، بل شملتْ بقاع عديدة كالرّحالة العربي الشهير" ابن فضلان " الذي قام برحلةٍ إلى بلاد البلغار بتكليف من الخليفة العباسي المقتدر بالله سنة 309هـ / 921م [4] ، و" ابن بطوطة " الذي يُعدُّ مِنْ أشهر الرّحالة في العالم حيث زار الكثير من البلدان كبلاد العرب، والهند، وجزيرة سيلان، والصين، والقسطنطينيّة، وعدداً من البلدان الإفريقية ، و" المقدسي " الذي طاف في أنحاء الممالك الإسلامية من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق ، ومن القسطنطينية إلى جنوب الجزيرة العربية ، و" ياقوت الحموي " صاحب موسوعة "معجم البلدان " التي احتوت على الكثير من المعلومات التي تتعلّق بأعلام البلدان، وإحداثيّات المدن، وتاريخها ، والرحّالة المراكشي " الحسن بن محمد الوزاني " الشهير " بليون الإفريقي " الذي وصف إفريقيا وصفاً دقيقاً في كتابه " وصف إفريقيا " ، هذا بالإضافة إلى أسماء أخرى " كالإدريسي ، والبيروني ، والبلوي ، والعبدري " وغيرهم .

وممّا لا شكّ فيه أنَّ كتب الرّحلات غنية بموضوعاتها ، لأنّ الرّحالة تحمَّلوا الكثير من الصِّعابِ والمشاقّ أثناء سفرهم ، فالرّحلة هي تعبير صادق عمّا شاهده الرّحالة ، أو ذكره خلال رحلته من حوادثَ ومشاهدَ وقصصٍ ، ويكون هذا التعبير عادةً مطبوعاً بشعوره وأحاسيسه وتأمّلاته وآرائه تجاه ما لقيه من أشخاص ، وما حظي به من معاملة ، أو ما شاهده من ظواهر، وغالبا ما تنعكس اهتمامات الرّحالة على كتاباته ، فتأتي تلك الكتابات متأثرة بثقافته ومجال اهتمامه ، فنجد الرّحالة الجغرافيّ والرّحالة الأديب والرّحالة الفقيه والرّحالة الشاعر والرّحالة الصوفي ، وبصورة عامة فالرّحالة يهتم بمعرفة كل ما يتعلّق بالبلاد التي زارها بما ينسجم مع اهتماماته ، فنظرة الرّحالة للبلدان التي يمرّونَ بها تختلف عن نظرة أبنائها إليها ، وفي العموم تكون كتابات الرّحالة محايدة ، لكنْ لا بدَّ لنا من الاعتراف بأنّ الرحّلة تتأثر بشخصية كاتبها الذي لا يهدف فقط إلى عرض مجريات رحلته ، بل التأثير في المُطّلع عليها .

ويتميّز أدب الرحّلة عند العرب بظهور شخصيات الرّحالة فيها ، فهم لا يكتفون بوصف مراحل الطريق ، بل يذكرون جميع المظاهر السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعمرانية في البلدان التي يمرّون بها [5] ، ومن

---

**([3]) زيادة ، الرّحلات العربية ، ص5 .**

**([4]) حسني، محمود حسين ، أدب الرحلة عند العرب ، الطبعة الثانية ، دار الأندلس، بيروت ،1983م ، ص 12.**

**([5]) زكي ، محمد حسن ، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، الطبعة الأولى ، شركة نوابغ الفكر ، القاهرة ، 2008م، ص179.**

الطبيعي أنّ الرّحلات ليست جميعها في مستوى جيد ، وذلك لأنّ الرّحالة يختلفون في دقة ملاحظتهم وتركيزهم ، ودرجة اهتماماتهم ، وفي نوع هذه الاهتمامات ، وكذلك يختلفون في درجة صدقهم وأمانتهم وقدرتهم على فهم الأمور[6].

وقد حظيتْ مؤلفات هؤلاء الرّحالة في وقتنا الراهن بكثير من الاهتمام من حيث دراستها والبحث فيها ونشرها بسبب ما تضمّنته من مادةً غنيةً ، وما أضافته من إضاءاتٍ لجميع فروع العلم والمعرفة ، كالجغرافيا والتاريخ والأدب والاقتصاد والاجتماع والسياسية [7] ، ويمكن القول إنَّ الرحّلة على علاقة مباشرة بجميع تلك العلوم ، لأنّ المعلومات الوفيرة والغنية التي تتضمّنها كُتب الرّحلات تَهمُّ المؤرخَ والجغرافيّ وعلماءَ الأدبِ والاقتصادِ والاجتماع والسياسية والفن والأديان والأساطير على السواء [8] ، ذلك لأنّ الرّحالة سَجّلوا معلوماتهم بناءً على الملاحظة المباشرة والمعاينة القريبة للأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعمرانية للبلدان التي زاروها أو مرّوا بها ، هذا بالإضافة إلى أنّ مِنْ بين الرّحالة نجد المؤرّخ والجغرافيّ ورجل الدين [9].

فكتابات الرّحالة عن الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعمرانية في البلدان التي مَرُّوا فيها ساعدت الدّارسيين والمختصّين في تلك المجالات مساعدة كبيرة ، فمن الناحية السياسية أسهمت تلك الكتابات في تعريف الباحثين على الأوضاع السياسية في تلك البلدان ، ومن الناحية الاقتصادية أشارَ الرّحالة إلى الزّراعات والصّناعات المنتشرة في تلك البلدان ، وتحدّثوا عن الطرق التجاريّة ، وأنماط التعاملات والنقود ، كما قَدّم الرّحالةُ الكثير من المعلومات عن الجوانب الثقافيّة والعلميّة والعمرانيّة في المناطق التي مَرُّوا بها .

وهكذا نجدُ أنَّ لكتابات الرّحالةِ قيمةً علميةً كبيرةً ، وخاصّةٍ لدارسي التاريخ بسبب ماتقدّمه من معلوماتٍ مفيدةٍ تساعدُ في إلقاء الأضواء على الجوانب السّياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والثقافيّة والعمرانيّة للفترة التي تتحدّثُ عنها ، خصوصاً أنّ كُتاب تلك الرّحلات كانوا مِمَّنْ عاصروا تلك الأحداث ، ودَوّنوها بناءً على مشاهداتهم المباشرة على أرض الواقع وعلى احتكاكهم المباشر بالنّاس ورجال العِلْم والسّياسة .

**ثانياً . محمد السنوسي(1267. 1318هـ/1850.1900م) ، (السيرة الذاتية ، وأهم مؤلفاته) :**

يُعدُّ محمد السنوسي من أَنْجَبِ خريجي جامع الزيتونة ، وهو أحدُ أبرزِ العناصر التونسية التي عملتْ في حكومة خير الدين التونسي التي سعتْ إلى إقامة سلسلةٍ من الأعمال الإصلاحية بهدف إنقاذ تونس من أزمتها المالية ، وإبعاد النفوذ الأجنبي عنها ، كما كان السنوسي من بين المفكّرين العرب الأوائل الذي دَعَوا إلى دراسة العلوم الحديثة ، والأَخْذِ بأسباب التقدُّمِ من أجل استعادة الأمة العربية والإسلامية مكانتها وعزتها .

وُلِدَ محمد بن عثمان بن محمد بن عثمان بن محمد بن أحمد بن مهنية السنوسي في 22 ذي القعدة سنة 1267هـ / 18 أيلول سنة 1850م [10] ، ونشأ في كَنَفِ أسرةٍ مشهورة بماضيها العلمي ، وتلقّى علومَه في جامع الزيتونة على يد عدد

---

**([6]) حسني : أدب الرحلة ، ص 6.**

**([7]) المرجع السابق ، ص 9.**

**([8]) المرجع السابق ، ص 6.**

**([9]) حسين ، محمد فهيم ، أدب الرحلات ، سلسلة مجلة عالم المعرفة ، العدد 138، الكويت ، 1989م ، ص11.**

**([10]) السنوسي ، محمد ، الرّحلة الحجازية ، تحقيق علي الشنوفي ، 3 أجزاء ، الشركة التونسية للتوزيع ، تونس ، 1978م ، الجزء الثالث، ص 11.**

من الشيوخ المعروفين كمحمود قابادو والشيخ سالم بوحاجب اللذين يعود الفضل إليهما في تعرّفه على آل بيرم وأشهر رجال الإصلاح من الضباط ورجال الإدارة ، وخاصّة خير الدين التونسي [11].

شغل محمد السنوسي عِدَّةَ مناصب في تونس ، قبل خضوع تونس للحماية الفرنسية سنة 1298هـ /1881م ، فقد اختاره صديقه محمد بيرم الخامس كاتباً أول في جمعية الأوقاف سنة 1293هـ / 1876م ، كما أُسْنِدتْ إليه مهمة التدريس في إحدى الزوايا الوقفيَّة وهي سيدي الهياص ، كما عُيِّنَ بمساعدة من صديقه محمد بيرم الخامس مُحَرِّراً في جريدة الرائد التونسية [12] .

بعد فرض الحماية الفرنسية على تونس ، تمّ إبعاد محمد السنوسي عن تحرير جريدة الرائد سنة 1298هـ/1881م ، ولذلك قرّر مغادرة البلاد ، وتذرَّع برغبته في السفر للحجّ ، ونجح في الحصول على إذن بذلك ، فغادر تونس في جمادى الثانية سنة 1299هـ/ أيار1882م ، مُتَّجِهاً إلى مدينة نابولي الإيطالية حيث التقى فيها بعض الرفاق ، وزار برفقتهم بعض المدن الإيطالية ، ثم اتَّجه إلى العاصمة العثمانية استانبول وزار فيها خير الدين التونسي ، كما اتّصل بالشيخ محمد ظافر شيخ الطريقة المدينية والمقرب من السلطان عبد الحميد الثاني الذي عرض على السنوسي البقاء في استانبول والقيام بإصدار جريدة عربية تخدم سياسة السلطان عبد الحميد ، لكنَّ السنوسي اعتذر عن ذلك ، وتابع طريقه إلى الحجاز بحراً ، فوصل إلى مدينة جدَّة في أيلول من السنةِ نفسِها ، وأدّى فريضةَ الحجِّ [13].

انضم السنوسي إلى قافلة الحجّ الشّامي في طريق العودة ، وعند وصول قافلة الحجّ إلى منطقةٍ تُدْعَى وادي الزرقاء عَلِمَ السنوسي أثناء مطالعته بعض الصحف بوفاة باي تونس محمد الصادق ، وتولّي أخيه علي باي أَمْرَ الحُكْمِ ، فقرَّرِ العودةَ إلى تونس بعد قضائه عدّة أيامٍ في دمشق زار خلالها الأمير عبد القادر الجزائري وبعض المعالم المعروفة في مدينة دمشق كالجامع الأموي ، ومن دمشق انتقل السنوسي إلى مدينة بيروت التي اجتمع فيها ببعض الشخصيات الأدبية والسياسية ، وقد كان راغباً في زيارة القدس ، لكنّ نصيحةَ البعض له بالتخلّي عن هذه الفكرة خوفاً من اللصوص وقُطّاعِ الطُّرُقِ ، لأنَّ الطريق إلى القدس لم يكنْ آمناً ، جعلته يَعْدِلُ عن تنفيذ مُخطَّطه ، فقرَّرَ العودة إلى تونس بحراً [14]. وبعد عودته إلى تونس استأنف محمد السنوسي نشاطه في جمعية الأوقاف حيث انخرط من جديد في أوساط المثقفين من سكان العاصمة تونس الذين قُيِّدت حركتهم بعد وقوع تونس تحت الحماية الفرنسية [15].

كان السنوسي من مؤسسي الفرع التونسي للجمعية السرية الإسلامية التي كانت تُسمَّى جمعية العروة الوثقى [16] ، وفي شهر جمادى الأولى سنة 1302هـ/ آذار سنة 1885م اجتاحت تونس حركةَ احتجاجاتٍ كثيفة ، كان سببُها

---

**([11])عبد السلام ، أحمد : المؤرخون التونسيون في القرون 17و18و19م ، نقلها من الفرنسية إلى العربية أحمد عبد السلام وعبد الرزاق الحليوي ، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون بيت الحكمة ، تونس ، 1993م، ص 469.**

**(12) السنوسي ، محمد بن عثمان ، مسامرات الظريف بحسن التعريف ، تحقيق وتعليق الشيخ محمد الشاذلي النيفر ، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع ، تونس ، (د.ت) ، ص 30.**

**([13]) عبد السلام ، المؤرّخون التونسيون ، ص . ص 470 . 471.**

**([14])عبد السلام ، المؤرّخون التونسيون ، ص 471.**

**([15]) محفوظ، محمد ، تراجم المؤلفين التونسيين ، 5 أجزاء ، الطبعة الأولى دار الغرب الإسلامي ،بيروت ، 1982، الجزء الثالث ، ص 76.**

**([16]) تأسّست جمعية العروة الوثقى في مدينة باريس سنة 1299هـ/1882م على يد الشيخ جمال الدين الأفغاني ، وانتشرت أفكار هذه الجمعية في مناطق من البلاد العربية ومنها تونس ، ففي سنة 1301هـ/1884م قام الشيخ محمد عبده بأول زيارة إلى تونس ، وألقى عدّة محاضرات بجامع الزيتونة ، وأجرى بعض الاتصالات مع الأوساط الثقافية والإصلاحية التونسية ، فانتشرت أفكاره بين شيوخ جامع الزيتونة وطلبتها المنفتحين لمختلف التأثيرات الواردة من المشرق العربي الإسلامي ، كما نالت تلك الأفكار استحسان تلامذة المدرسة الصادقية ،**

الإجراءاتِ التي اتَّخذتها السلطات الفرنسية التي سعتْ لتغيير أنماط الحياة في العاصمة حيث عمدت إلى فَرْضِ ضرائبَ جديدةٍ ، واستمرت هذه الحركة شهراً كاملاً ، وانتظمت المظاهرات أمام قصر الباي ، إلاّ أنّ السلطات الفرنسية استطاعت السيطرة على هذه الحركة وقامتْ باتِّخاذ عدّة إجراءات قمعيةٍ ، كان من بينها إبعاد محمد السنوسي عن وظيفته لمشاركته في تلك الأحداث حيث تمَّ نفيه إلى مدينة قابس ، لكنّ إقامتَه في تلك المدينة لم تطلْ ، فعادَ مُجدَّداً إلى تونس بعد صدور قرار العفو عنه من الباي ، وقد دوّن محمد السنوسي أحداثَ تلك المرحلةَ في كتابه " خلاصة النازلة التونسية " [17].

بعد عودته إلى تونس من منفاه في قابس شغل السنوسي عدّة مناصبَ كان من بينها تعيينه كاتباً للمجلس العقاري المختلط [18]، كما شارك في تأسيس جريدة الحاضرة [19] بعد أَخْذِ الموافقةِ من السلطات الفرنسية ، وفي سنة 1306هـ/1889م سافر السنوسي إلى فرنسا لزيارة المعرض الدولي [20]، ووصف تلك الرّحلة في كتابه " الاستطلاعات الباريسية " ، وبعد عودته من فرنسا تعرَّضَ لمرضٍ عُضَالٍ أدّى إلى وفاته في 14 رجب سنة 1318/ 17 تشرين الثاني سنة 1900م [21].

**. مؤلّفاته :**

وضع محمد السنوسي العديد من المؤلَّفات التي شملتْ ميادين عدّة كالأدب والتاريخ والدِّين والقانون ، وبلغت مؤلّفاته بالإضافة إلى الرّحلة الحجازية التي هي موضوع دراستنا حوالي العشرين كتاباً [22] ومن أهمها :

. مجمع الدواوين التونسية : جمع فيه تراجم أكثر من ثمانين شاعراً من الشعراء التونسيين المعروفين في ذلك العهد ، وانتهى من تأليفه سنة 1292هـ/1875م ، فكان يبدأ بعرض ترجمة بسيطة عن حياة كلِّ شاعرٍ يُقَدّمُ فيها معلوماتٍ تتعلّق بميلاد الشاعر ، وأهمّ الأحداث التي عاشها في حياته ، ثم يورد عدداً من المقاطع الشعرية المختارة المترجم له .

---

**لكن تلك المبادئ الإصلاحية التي عبر عنها جمال الدين الأفغاني وتبناها أتباع جمعية العروة الوثقى بتونس لم تَرُقْ لسلطات الحماية الفرنسية بتونس ، فانتهزت فرصة مظاهرة المرسى ومطالبة المتظاهرين بإعادة تنظيم المجلس البلدي بالعاصمة لوضع حد لنشاط الجمعية المذكورة بتونس ، وإخماد صوت المصلحين التونسيين . قصاب ، أحمد ، تاريخ تونس المعاصر(1881. 1965م) ، تعريب حمادي الساحلي، الطبعة الأولى ، الشركة التونسية للتوزيع ، تونس ، 1986م، ص 362.**

**([17]) عبد السلام ، المؤرّخون التونسيون ، ص .ص 472 . 473.**

**([18]) السنوسي ، مسامرات الظريف ، ص 34.**

**([19]) جريدة الحاضرة : هي أول جريدة غير رسمية تصدر في تونس بعد الاحتلال الفرنسي حيث صدرت سنة 1305هـ / 1888م ، واستمرت بالصدور حتى عام 1911م ، وهي جريدة أسبوعية أدبية ، وكان من أشهر مؤسسيها ومحرريها الشيخ سالم بوحاجب وعلي بوشوشة ومحمد السنوسي ، وكان أسلوبها يشبه أسلوب جريدة الرائد التونسي قبل انتصاب الحماية الفرنسية ، فافتتاحيات الشيخ محمد السنوسي كانت تكتسب طابعاً أخلاقياً واضحاً ، وقد انتشرت هذه الجريدة انتشاراً واسعاً بين الأوساط التونسية بشكل كبير ، وذلك بفضل رعاية الشيخ سالم بوحاجب ، كما أن إدارة الحماية الفرنسية لم تناهضْها نظراً لما كانت تتميّز به من لهجة معتدلة . قصاب ، تاريخ تونس المعاصر ، ص 327.**

**([20]) السنوسي ، الرحلة الحجازية ، الجزء الثالث ، ص 12.**

**([21]) محفوظ ، تراجم المؤلفين التونسيين ، الجزء الثالث ، ص 78.**

**([22]) للتفصيل حول مؤلفات محمد السنوسي يرجى العودة إلى السنوسي ، مسامرات الظريف ، ص . ص 55. 69 . عبد السلام ، المؤرّخون التونسيون ، ص . ص 475 . 511.**

. مسامرات الظريف بحسن التعريف : يُعَدُّ هذا الكتاب من أهم كتب السنوسي، ويقع في ثلاثةِ أجزاءٍ ، وتَطَّرقَ فيه لتاريخ فُقهاء الدولة الحسينيّة وقُضَاتِها .

. خُلاصة النازلة التونسية : تَعرَّض فيه إلى الأحداث التي أَلَمَّتْ بتونس في شهر جمادى الأولى سنة 1302هـ/ آذار سنة 1885م ، وكانت عبارة عن حركاتٍ احتجاجية ظهرت في العاصمة تونس عَقِبَ الإعلان عن فَرْضِ ضرائبَ جديدةٍ، غير أنَّ السلطاتِ الفرنسيةِ عمدت إلى قمع تلك الحركة ، وفرضتْ بعض الإجراءات العقابية بحقِّ المتورِّطين في تلك الأحداث.

. الاستطلاعية الباريسية : وَصَفَ فيه ما شاهده في العاصمة الفرنسية باريس أثناء زيارته لفرنسا لزيارة المعرض الدولي الذي أقيم بها في سنة 1306هـ / 1889م ، وتكمنُ أهميّةُ هذا الكتابِ في المقارنة بين الأوضاع الراهنة في كلٍّ من أوروبا والعالم الإسلامي .

. تفنُّق الأكمام : وهي رسالة تتحدّث عن المرأة يوضح فيه ما للمرأة المسلمة من حقوقٍ وواجبات .

. الروض الزاهر في إسناد الحبس للإسلام الزاهر : ويقصد بالحبس الأوقاف ، وتحدَّثَ في هذا الكتاب عن دُوْرِ الأوقاف في تونس مبرزاً دَوْرَها في مكافحة الفَقْرِ ونشر الثقافة .

ومن المؤلّفات الأخرى لمحمد السنوسي : تُحْفَة الأخبار بمولد المختار ، الجنة الدانية الاقتطاف بمفاخر سلسلة السادة الأشراف وهي قصيدة في المدح تشتمل على مئتين وواحد وخمسين بيتاً نَظَمَها في سلسلة الأشراف بتونس، النبذة التاريخية في منشأ وزارة مصطفى بن إسماعيل ، المورد العين الذي قام بتأليفه سنة 1305هـ / 1888م ، رسالة المجبي، نشر البساط في نازلة الفسطاط ، نظام المدنية المفيد لكتاب العصر الجديد ، تحفة الأخيار بمولد المختار صلى الله عليه وسلم الذي وضعه في سنة 1302هـ / 1884م ، مطلع الداري بتوجيه النظر الشرعي على القانون العقاري .

**ثالثاً . المظاهر السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعمرانية التي رصدها السنوسي في بلاد الشام :**

قام محمد السنوسي بعد أدائه شعائر الحجّ والعمرة بمرافقة قافلة الحجّ الشامي في طريق عودتها إلى دمشق مشيراً إلى الأسباب التي دفعته إلى ذلك قائلاً " وبما رأيت عليه انتظام الركب الشّامي مع فشو المرض وخطر طريق البدو اخترت مصاحبة الركب الشّامي للإياب"[23] . تجمع الحُجَّاج في مَوْضِعٍ يُقَالُ له بئر عثمان بالقرب من المدينة المنورة ، وكان وصول السنوسي إليه في عشية يوم الاثنين 16 محرم سنة 1300هـ/26 تشرين الثاني1883م ، فوجد الخيامَ مُعَدَّةً لإستقبال الحُجَّاج ، وكانَ أميرُ الرَّكْب الشّامي يُدعى سعيد باشا الذي وصفه السنوسي بقوله " وهو رجلٌ شَهْمٌ حازم يُحْسِنُ اللسان العربي بسبب كثرة إمرته على الحجّ في نحو العشرين سنة ، وهو صاحبُ الإمارةِ العسكرية " [24] . أَمّا أمير الصرّة فكان يُدعى آصف باشا ، وشرح السنوسي مصطلح الصرة [25] بقوله " واسم الصرّة عبارةٌ عن المال الخارج

---

**([23])السنوسي ، الرحلة الحجازية ، الجزء الثاني ، ص 216.**

**([24]) المصدر السابق ، ص 216.**

**([25]) تنوّعت المصادر المالية التي مَوّلت قافلة الحجّ الشّامي ، وكان القسم الأكبر منها يحصّل من الضرائب التي كانت تُسمّى مال الميري ، أو من الرسوم التي فرضتها الدولة على التجارة والصناعات في ولاية الشّام بصورة رئيسة وفي ولايات صيدا وطرابلس وحلب إلى حدٍّ ما ، وكان يتمُّ تعيين أمير الحجّ من بين حكام صناجق نابلس ، وعجلون ، واللجون ، وغزة ، وصفد ، والقدس في الفترة التي سبقت تعيين ولاة الشّام أمراء للحج في سنة 1120هـ/1708م حيث كان الهدف من ذلك جمع أموال الميري من هذه المناطق لتمويل قافلة الحجّ ، وعندما عُيِّنَ والي دمشق أميراً للحجّ أصبح يخرج بنفسه كل سنة ، قُبيل خروج القافلة ليدور على الصناجق التابعة لولايته ، ويجمع منها مال**

من دار الخلافة لإقامة شعائر الحرمَيْن الشريفين من شموع وزيت وقناديل ولوازم الإيقاد والفرش وجراية المستحقِّين من أهلها وعوائد جميع أهل الأراضي الحجازية في أثناء مرور الركب " [26].

اهتمَّ السنوسي بوصف تفاصيل قافلة الحجّ الشّامي التي ذكر أنها كانت تتكون من حراسة مؤلّفة من 400عسكري و100جندرمة و 50 طوبجية معهم مدفعان ، وبوسطجي يُدْعى أحمد باشا يتولى إمرة الرسائل الواردة والصادرة ، وخوجة دار يُدعى إبراهيم أفندي ، ونائب للقضاء يدعى محمود أفندي ، وطبيب يدعى ذئب أفندي ، وكانت القافلةُ تضمّ ألفي جمل ، وقدّر السنوسي عددَ الحجاج المرافقين لقافلة الحجّ الشّامي في تلك السنة بحوالي خمسة آلاف حاجٍّ ، وهؤلاء الحُجَّاجُ مقسَّمون إلى عدّة جماعاتٍ كلُّ جماعةٍ تَتَّبع شخصاً يُدعى المقوِّم ، وهو مسؤولٌ عن تأمين حاجات جماعته من الإبل والخيام والطعام لقاء مبلغٍ من المال ، لكنْ باستطاعة الحُجَّاج إعداد الطعامِ بأنفسهم ، ويتولّى المقوِّم إحضار الماء والحطب اللازم لإعداده لقاءَ أُجْرَةٍ مُحَدَّدةٍ ، كما أشارَ السنوسي إلى وجودِ عدّة أشخاصٍ مسؤولين عن تزويدِ الرَّكْبِ بالمياه ، ويدعون السقائين ، ويوجد أيضاً أشخاص مسؤولون عن قيادة الجمال أثناء المسير ويدعون العكّامين [27].

وتحدّث السنوسي عن بعض العادات والطقوس المتَّبَعة في ركب الحجيج خلال المسير والتوقُّف والإيذان بالصلاة ، فمثلاً عند بلوغِ الرَّكْبِ نصف الطريق بين مرحلتين من المراحل المُعَدَّة لنزول الحُجَّاجِ يتقدم المهاترية ، وهم الأشخاص المسؤولون عن إعداد الخيام على بقية الركب إلى المكان المحدّد لنزول الحُجّاج ، ويقومون بضرب الخيام وتجهيزها قبل وصول الحُجّاج . ومن الطقوس الأخرى تأخير مجموعة من الأشخاص وبحوزتهم مائة جمل عن الركب عند انطلاقه من كل مرحلة بحوالي الساعة للتأكُّد من عدم تخلّف أحدِ الحُجّاجِ عن اللحاق بالرَّكْبِ ، وأيضاً لإحضار الأمتعة المتساقطة من الركب ، ومن العادات أيضاً إطلاق المدفع عند نزول الركب في كلِّ مرحلةٍ ، وعند أوقات الصلاة . أما عند انطلاق الركب في كل مرحلة يتم إطلاق المدفع مرتين الأولى من أجل استعداد الحُجَّاج لبدأ الانطلاق والثانية من أجل الانطلاق . أَمَّا فيما يتعلّق بطريقةِ سير القافلة فقد وصف السنوسي ذلك بقوله " وسير الإبل يكون قطارات كالسموط المنظمة لبنها محجة للراجلين ، وفي بعض المسالك يكون الركب كله قطاراً واحداً " [28].

قدّم السنوسي وصفاً تفصيلياً لجميع مراحل طريق الحجّ الشّامي ابتداءاً من المدينة المنورة إلى أن بلغ الركب الشّامي مدينة دمشق ، فبعد تجمع الحُجَّاج في بئر عثمان عشية يوم الاثنين 16 محرم سنة 1300هـ/26 تشرين الثاني1883م، انطلق الركب في صباح اليوم التالي ، ليتوقفوا في مواضعَ عدّة وهي : بئر جابر – آبار نصيف – اصطبر عنتر . الفحلتين . هدية التي أشار إلى وجود قلعة كبيرة فيها – بزاقة " وهي أرض محجرة لا ماء فيها [29] – البئر الجديد – الزمردة التي ذكر أنها موضع كثيرة الحجارة قليلة الماء ، ويوجد فيها قلعة كبيرة . المربع . قلعة المدائن – جبل الطاقة . ظهر الحمراء . بركة المعظم – جنائن القاضي – الأخضر – دار الغير – تبوك – قاع الصغير التي ذكر السنوسي أنها أول المراحل التي تقع في الأراضي الشامية – ذات حج وأشار السنوسي إلى وجود قلعة فيها ، ويوجد في تلك

---

**الميري المخصّص للقافلة . رافق ، عبد الكريم ، قافلة الحجّ الشّامي ، مجلة دراسات تاريخية مجلة علمية فصلية تعنى بالدراسات حول تاريخ العرب تصدرها جامعة دمشق ، لجنة تاريخ العرب ، العدد السادس ، 1981م.، ص 11.**

**([26]) السنوسي ، الرّحلة الحجازية ، الجزء الثاني ، ص 218.**

**([27]) للتفصيل حول هذه المعلومات يرجى العودة إلى السنوسي ، الرّحلة الحجازية ، الجزء الثاني ، ص . ص 224، 228.**

**([28]) المصدر السابق ، ص 227.**

**([29]) المصدر السابق ، ص 231.**

القلعة عين ماء يجري إلى بركة تمّ إنشاؤها من قِبل السلطان سليمان ، ثم قلعة المدورة . بطن الغول – ظهر العقبة التي وصفها السنوسي بقوله " هذه عقبةُ عُظمى في جزيرة العرب حتى أن اسمَ عقبة إذا أطلق انصرف إليها لعظمتها وامتدادها وشدّة ارتفاعها وصعوبة رصيفها"[30].

بدأت رحلة السنوسي في الأراضي الشّامية عند وصول قافلة الحجّ الشّامي إلى مَوْضعٍ يُقال له مَعَان حيث ذكر السنوسي أنَّ معانَ قريةٌ في الصحراء ، ويوجد بالقرب منها قرية أخرى تحمل نفس الاسم ، لكنّ إحداهما تابعة للأراضي الشّامية والثانية تابعة للأراضي الحجازية ، ثم غادرت قافلة الحجّ مَعَان في صباح يوم الأربعاء 9 صفر سنة 1300هـ/19 كانون الأول1883م ، لتصلَ إلى محطَّةِ الاستراحة التالية في عنيزة التي عُدها السنوسي من المراحل الصعبة نظراً لوعورتها وكثرة حجارتها ، ثم كان التوقف التالي في موضعٍ يُقال له قلعة الحصا التي وصفها السنوسي بأنها " قلعة حسنة البناء في بطن وادٍ بأرض جيدة واسعة"[31] .

كانت قلعة القطرانة هي المحطة التالية التي توقفتْ فيها قافلة الحجّ الشّامي ، قبلَ أنْ يتابع الحُجَّاج رحلتَهم مارَّين بمناطق عدّةٍ كبطن الثمن والبلاطة والقلايات التي عُدَّها السنوسي من المراحل الصعبة نظراً لوعورتها وصعوبة مسلكها، ومِمَّا زاد الأمر سوءاً في تلك السنة سقوط الأمطار واشتداد الرياح ، ثم وصل الحُجَّاج إلى وادي الزرقاء وهو" أحسن المواقع سيما بعد طول السفر في يابس الصحراء " [32] ، ثم تابعت قافلة الحُجَّاج رحلتها فكان الوصول إلى قرية الرمثة في يوم الأحد 27 صفر1300هـ/6 كانون الثاني 1883م ، ثم قلعة المزريب ، ثم كان مرور القافلة في قرية طفس ، وهي من قرى حوران ، ثم غادر الحُجَّاج قرية طفس متابعين رحلتهم إلى مدينة دمشق مارّين بعدّة قرى منها قريتي الخربتين ، وقرية الشمسكين ، ومن ثم عبر الحُجَّاج جسر الصنمين الذي وصفه السنوسي بأنه من أحسن الجسور، لكنّه أشار إلى أن قرية الصنمين كانت مُدَمَّرَةً " والبلدُ كلُّه خرابُ لا تظهر سلامة بنائه إلاّ في بعض الأديار التي هي أكثر ما بقي من البلد .... وتوجد بها أنواع من الطيور ومياهها كثيرة العلق الذي يتولد من الخَزْنِ المتكون من الماء " [33] .

ومن ثم تجاوزت القافلةُ بعد قرية الصنمين قرية أخرى تُدعى غباغب ، لتصلَ إلى قرية الكسوة حيث نزل السنوسي ضيفاً في منزل أحد أعيان القرية ، ويُدعى السيد أبو الفضل الذي أكرمه غايةَ الكرم [34]. وفي يوم الأربعاء 10 صفر سنة 1300هـ /1883م دخل السنوسي إلى مدينة دمشق ، فأُسر بِجَمالها وبياض بيوتها وكُثْرةِ منازلها ، فأنشدَ عدّة أبيات في مَدْحِ هذه المدينة نذكر منها :

بَدَتْ تلكَ البلادُ لنا عروساً وحُسْنُ بَياضِها فَاقَ الحَليَّا

ولاقتْنَا بساتنُها بِبِشْرٍ به قد لاحَ ليْ طَلْقُ المُحَيَّا

أقام السنوسي خمسة أيام في مدينة دمشق ، ثم غادرها مُتَّجهاً إلى مدينة بيروت " وكانت مدة إقامتي في دمشق خمسة أيام استوفيت فيها المرام ، وخرجت من غير رِضى أهلها بذلك الفراق ، ورأيت من حُسْنِ مشايعتهم ما ننتظرُ به حُسْنَ

---

**([30])السنوسي ، الرّحلة الحجازية ، الجزء الثاني ، ص 247.**

**([31]) المصدر السابق ، ص 266.**

**([32]) المصدر السابق ، ص 274 .**

**([33]) المصدر السابق ، ص 288 .**

**([34]) المصدر السابق ، ص 296.**

التلاقي [35] ، فكان دخوله إلى مدينة بيروت عشية يوم الاثنين 5 من ربيع الأول سنة 1300هـ/13 كانون الثاني 1883م ، بعد رحلة استمرت اثنتي عَشْرَةَ ساعةً حيث أشار إلى توفر المواصلات ما بين دمشق وبيروت قائلاً " وتواصلتُ بدمشقَ بكرّوسةٍ تُسمّى ديليجانس تسير يومياً وتصلُ في مدة اثنتي عَشْرَةَ ساعة ، وكان ركوبي بها باكرة يوم الاثنين الخامس من ربيع الأول ودخلتُ مدينة بيروت عشية ذلك اليوم [36].

نزل السنوسي ورفيقه عبد الباقي باي في أحدِ الفنادق المطَّلةِ على البحر والقريبة من ميناءٍ يُدْعَى أوتيل بولس ، وقد كان رَحّالتنا راغباً في التوجُّهِ إلى مدينة القدس بعد انتهاء زيارته لمدينة بيروت ، لكنَّ نصيحةَ بعض أصدقائه في بيروت بالعدول عن تنفيذ تلك الفكرة نظراً لسوء الأوضاع الأمنية على الطريق جعلته يغيّر رأيه ويقرّرُ العودة إلى تونس بحراً ، فغادر مدينة بيروت عشية يوم الأربعاء 14 ربيع الأول سنة 1300هـ/ 22 كانون الثاني 1883م ، مارّاً بمراسي عكا وحيفا ويافا التي حمل منها المركب الذي كان على متنه كميات من برتقالها الذي صنّفهُ السنوسي من أجود أنواع البرتقال الذي شاهده . وقد قدّم السنوسي في رحلته بعض التفاصيل والمعلومات عن أوضاع بلاد الشّام في نهايةِ القرنِ التاسعَ عشرَ من الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعمرانية .

**1 . المظاهر السياسية :**

عرض السنوسي صورة واضحة عن أوضاع بلاد الشّام في ظلِّ الحُكْمِ العثماني والذي كان من أبرز سماته ازدياد النفوذ المحليّ في بعض المناطق مُقابل تَراجُعِ سلطة الدولة المركزية ، واضطراب الأوضاع الأمنية ، وفقدان الأمن نتيجة كثرة اللصوص وقُطّاعِ الطُّرُقِ فضلاً عن اعتداءات البدو ، وكثرة المظالم التي يتعرض لها السكان على أيدي الولاة العثمانيين ، فعند توقف قافلة الحجّ في قلعة الحصا التقى السنوسي بأحد الرجال المسيحيين ، وهو من سكان ناحية الكراد التي تقع على ساحل البحر ، وتبعد عن قلعة الحصا مسيرة نصف يوم حيث أخبر هذا الرجل السنوسي أنَّ منطقة الكراد تُحْكَم من قِبَلِ أحدِ الأعيان ، ويُدْعى محمد مجلي " وذكر لي أنَّ بلدهم مستقل وحاكمهم شيخ من بيت أصيل في الحكم واسمه محمد مجلي مستبد بالسياسة والقضاء والفتوى مع العدل وحسن التصرف ، والبلد به نحو الخمسة عشر ألف نفس الثلثان منهم مسلمون وباقيهم نصارى جميعهم تحت طاعة الأمير وحكمه [37] ، فأبدى السنوسي استغرابه من هذا الكلام ، لكنّ الرجل واجهه بالحجج المقنعة " ترى هاته البراري الواسعة والأراضي الطيبة التي مررت عليها كيف تركتها الدولة العلية لحكم الدمار وقهر البدو مع أن هاته الأراضي من أخصب الأرض ولو ساعدتها رجال الدولة لأصبح عمرانها أعظم مما عليه أراضي أوروبا .... والحاصل فلا تعجب إذا كان السيد مجلي يدير أحسنَ تدبير بلداً بعيداً عن مواقع عمران البلاد الشّاميّة ، فاستعصم بعيداً عن مظالم ولاة الشّام وحمى بلده من ذلك الظلم الفظيع فتعلّق به أهل بلده وقام بحقوق مدينتهم ، فصار إلى هذا الاستقلال ، وعلاقته مع الدولة العليّة لم تزل متواصلة حيث أنه أرسل إليه كل سنة مع أمير الركب مَدَّيْن من القهوة وخمسةَ عشرَ ألفَ قرشٍ عادةً عليها ولا شيء لها غير ذلك العطاء"[38].

---

**([35]) السنوسي ، الرّحلة الحجازية ، الجزء الثاني ، ، ص 318.**

**([36]) المصدر السابق ، ص 320.**

**([37]) المصدر السابق ، ص . ص 266. 267 .**

**([38]) السنوسي ، الرّحلة الحجازية ، الجزء الثاني ، ص 267.**

**2 . المظاهر الاقتصادية :**

أشار السنوسي إلى الفوائدِ الاقتصاديةِ الكبيرة التي يجنيها سُكان بلاد الشّام من خلال مرور قافلة الحجّ في مُدُنهم وقُراهم على الرّغم من تناقص أعداد الحُجَّاج الأتراك [39] حيث يقومون ببيع الحُجَّاج مختلفَ أنواع الفواكه والخضار وغيرها من البضائع ، كما تحدّث السنوسي عن النشاط الاقتصادي في مدينة دمشق [40] ، فأشار إلى خصوبة تربة مدينة دمشق والتي تساعد على إنتاج أجود المحاصيل الزراعية ، إضافة إلى توافر المياه بكميات كبيرة ، كما تحدّث عن رواج التجارة والصناعة في هذه المدينة قائلاً " وأَمّا حُسْنُ تربةِ البلد وحسن نباتها ورواج تجارتها ووفور صناعتها فهو من أحسن ما عليه البلاد العربية مع انخفاض سعر المحصولات ومياهها كثيرة وأنهارها تجري من تحت جميع بيوتها ذات البرك وتسقي جميع حدائقها وبساتينها حتى كانت فواكهها وثمارها من أشهر الغشلال جودةً ويُقال إنّها تُسقى من سبعةِ أنهرٍ وهي : بردى ، ويزيد ، والديرات ، وثورا ، ومتوات ، و بانياس ، وعقرباء [41]. كما وصف السنوسي أسواق دمشق التي يخنص كل سوق منها ببيع بضاعة معينة " فَجُلنا في كثيرٍ من أسواقَها التي يختص كلُّ سوقٍ منها بصناعةٍ ، وكانت جملة أسواقها ثلاثين سوقاً تحوي نحو سبعة آلاف حانوت " [42] .

وقد أشار السنوسي إلى بعض الضرائب التي تفرضها الدولة العثمانية ، كالضريبة التي فُرِضَتْ على الحُجَّاج لتغطية نفقات إقامتهم طلية أيام الحجز الصحي حيث أطلق السنوسي على تلك الضريبة اسم ضريبة النظافة الصحية " وفي صباح الجمعة ورد الأذن بإجابة مطلب الباشا في إتمام مدّة الحجز الصحي ، وفي يوم السبت طاف الطبيب لتقييد الحجاج ، وفي يوم الأحد الموفى عشرين حرّر الطبيب تقييده وتعاطى استخلاص معلوم النظافة الصحية بحساب ثلاث مجيديات إلا ربع على راكب المحفَّة ، ومجيديَّين ونصف عن راكب الشبرية ، ومجيدي واحد عن راكب ذروة الجمل" [43] .

---

**([39]) في منتصف القرن التاسع عشر تحوّل معظم الحجاج الأتراك إلى الطريق البحري ، عبر قناة السويس بدلاً من الطريق البري عبر بلاد الشام وصولاً إلى الحجاز ، مِمَّا أدّى إلى خسارة التجارة الشّاميّة الداخلية بين المدن الكبرى (دمشق، حلب، حمص، القدس) فخسرت دمشق تجارتها مع الروم والآستانة وبرّ الأناضول ، وتحوَّل ذلك إلى الموانئ البحرية . للتفصيل يرجى العودة إلى القساطلي ، نعمان ، الروضة الغناء في دمشق الفيحاء ، الطبعة الثانية ، دار الرائد العربي ، بيروت ، 1982م ، ص 134.**

**([40]) احتلتْ دمشقُ مركزَ الصدارةِ بالنسبة لتجارة بلاد الشام ، وكانت دمشق وحلب من أعظم المراكز التجارية في الدولة العثمانية في بداية القرن التاسع عشر ، ولدمشق تاريخ عريق في التجارة بفضل موقعها ، فإليها تأتي القوافل التجارية من بلاد الشام وبلاد فارس والهند حاملة السجاد واللؤلؤ والتوابل والأحجار الكريمة ، وتُحمل هذه القوافل أثناء عودتها مصنوعات دمشق المشهورة كالأجواخ والثياب والألبسة الحريرية والمصنوعات الخشبية والصدفية والنحاسية ، وكانت التجارة بيد أبناء دمشق إلى أن سمح إبراهيم باشا بدخول التجار الأجانب إليها سنة 1834م ، ولعب هؤلاء دوراً كبيراً في ازدهار التجارة في هذه المدينة حيث أصبحوا همزة الوصل بين التجار الدمشقيين والمؤسسات التجارية والصناعية في الخارج ، فساهم التجار الأوربيّون في دفع عجلة التجارة الخارجية في دمشق إلى أعلى درجة ، وكانت التجارة سبباً في ازدهار الأحوال الاقتصادية في دمشق في منتصف القرن التاسع عشر ، فكانت أحوال الأشخاص الذين يعملون بالتجارة وفروعها أفضل حالاً من غيرهم بدرجات كثيرة . للتفصيل عن تجارة دمشق في القرن التاسع عشر يرجى العودة إلى صياغة ، نايف ، الحياة الاقتصادية في مدينة دمشق في منتصف القرن التاسع عشر، الطبعة الأولى ، وزارة الثقافة ، دمشق ، 1995م ، ص . ص 145 . 181.**

**([41]) السنوسي ، الرحلة الحجازية ، الجزء الثاني ، ص 317 .**

**([42]) المصدر السابق ، ص 314.**

**([43]) السنوسي ، الرّحلة الحجازية ، الجزء الثاني ، ص 280.**

**3 . المظاهر الاجتماعية :**

تحدّثَ السنوسي عن بعض العادات السائدة في منطقة بلاد الشّام كغلاء المَهْر في بعض المناطق كجبل حوران والكسوة فيقول " أمّا أهالي قرى حوران فلهم نحلاتٌ وعوائد متباينة مثلاً حالة التزويج عندهم في أكثر البلاد الوالد يعطي ابنته بشبه البيع بثمن باهظ ربما يأخذ فيه جميع كسب زوجها من الدواب والأرض والأثاث والحبوب والمال ويسلِّمها له مصحوباً ببلدين للنوم فقط بحيث أنّ أبا البنات عنده عرضة للغنى من بناته وفي بلد مثل الكسوة [44] التي هي ممرٌّ للرَّكْبِ كل سنة مرتين فينزل بها المصاحبون له واللاحقون به والسابقون عنه ويحتاج لكثرة الفرش والأغطية ، فإنَّ مَهْرَ البنات يضيف إليه والدهن ما يساويه للتجهيز، ويجعل جميع ذلك في شراء الفُرُشِ والأغطية خاصّة بحيث إن كل بيت فيه عدد غير قليل من الفرش والأغطية، ويتباهى النسوة والرجال بكميَّة ذلك " [45] .

أشادَ السنوسي بكرم وحُسْنِ ضيافة أهل مدينة دمشق [46] " ورأيت من لطف أهلها وكَرَمِ نفوسهم وحضارتهم ما كدتُ أنْ أتعجَّبَ منه لولا أَنّني على يقين من أنهم أهل بلد كانت دارَ مُلكٍ لخلافة الإسلام ، وفيها ضربت الأخلاقُ العربية تلك الخيام إلى غير ذلك ممّا قلبتها فيها الأيام مع حُسْنِ أرضها وهوائها ومائها المشهور بين الأنام " [47] ، وتحدّث السنوسي عن تأثر الدمشقيين بالعادات التركية في مناحي الحياة كافةً " ورأيت من لُطْفِ آداب الدمشقيين ولطافة خطابهم ورنة كلامهم وذكاء أحلامهم ما جمعوا به من الفضائل العربية والتركية .... بل أنّي رأيت أهل دمشق جمعوا بين العربي والتركي في معاملاتهم وألسنتهم وطعامهم وحلاوتهم ولباسهم وسائر أحوالهم فزادهم ذلك كمالاً على كمالهم " [48]. كما أبدى رحَّالتنا إعجابه بالجمال الكبير الذي تتمتع به نساء قرى منطقة حوران حيث أشار إلى ذلك عند مرورهم في قرية الرمثة " وقطعنا جسر الرمثة ورأينا نسوة تلك البلد الذي هو أول بلد حوران وهنَّ في غاية الجمال " ، ثم أعاد الحديث عن ذلك عند مرور القافلة في قرية طفس ، لكنّه عاب على نساءِ حَوران استخدامهم الوشومَ على الوجه " وأصبح يومُ الاثنين 28 شديدَ المطر ولكنْ في هذا اليوم تواردت نساءُ طفس يبعن الدجاجَ والبيضَ والحليبَ ، وكلُّهُنَّ جميلات الجمال البارع لولا أنّهن يستعملن وشماً في عوارضهن وذقونهن على نحو اللحية للرجال " [49].

تحدّث السنوسي عن اهتمام الدولة العثمانية بالنواحي الصحية للسكان ، وتجلّى ذلك بفرض نوعاً من الرقابة الصحية على الحُجَّاج منعاً لانتقال الأوبئة والأمراض أثناء تنقل الحُجَّاج من منطقة إلى أخرى ، فأشار السنوسي إلى اختيار السلطات العثمانية لمنطقة وادي الزرقاء لتكونَ مكاناً لإقامة الحُجَّاج لمدّة عشرةِ أيامٍ لخضوعهم للحجز الصحي ، وذلك

---

**([44]) الكسوة ، قرية تابعة لريف دمشق . للتفصيل المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري ، بأشراف العماد مصطفى طلاس ، 5 مجلدات ، الطبعة الأولى ، 1992م المجلد الخامس ، ص . ص 33. 34.**

**([45]) السنوسي ، الرحلة الحجازية ، الجزء الثاني ، ص 295.**

**(46) تتطابق المعلومات التي ذكرها السنوسي عن عادات الدمشقيين من كرَمِ الضيافة وحُسْنِ استقبال الضيوف مع ما أورده الرحالة محمد بن عبد الجواد القاياتي في كتابه نفحة البشام في رحلة الشام بقوله " وأَمّا أخلاقُ أهلها وطباعهم وعوائدهم وأوضاعهم ، فهي من أجمل ما يكون في أخلاق العالم من سهلة العريكة ولِيْنِ الجانب مع الأقارب والأجانب يلاقون الشخص بالطلاقة والبِشْرِ والهشاشة إلاّ أنَهم يبالغون في التحية فوق اللازم ويزيدون في كثرة التمني والانحناء على عادة الأتراك عند مقابلة العظيم منهم " القاياتي ، محمد عبد الجواد ، نفحة البشام في رحلة الشام ، دار الرائد العربي ، بيروت ، 1981م ، ص 140**

**([47]) المصدر السابق ، ص 308.**

**([48]) السنوسي ، الرّحلة الحجازية ، الجزء الثاني ، ص 317.**

**([49]) المصدر السابق ، ص 286 .**

من أجل التأكد من سلامتهم من الأمراض والأوبئة المنتشرة في الحجاز في تلك السنة ، قبل دخولهم إلى المدن الرئيسة في بلاد الشّام " ولحُسْنِ موقع هاته المنزلة كانت المحل الذي عَيّنته الدولة العليّة للحجز الصحي المسمّى بالكرنتينة لمدّة عشرةِ أيام " [50]. ولكن في تلك السنة ونتيجة سوء الأحوال الجويّة قرَّر الباشا العثماني المسؤول عن تنفيذ الحجز الصحي السماح للحُجَاج بمتابعة المسير قبل انتهاء مدّةِ الحجزِ ، لكنْ مع استمرار خضوع الحُجّاج للحجز الصحي ، ولذلك عمدِ إلى تشديد الحراسة على قافلة الحجّ ، لمنع أهل المناطق التي سوف يمرُّون فيها الحُجّاج من الاختلاط بالقافلة حتى انتهاء مُدّة العشرة أيام التي يخضع فيها للحُجّاج للحجز الصحي"[51].

أشار السنوسي إلى بعض المزارات التي قام بزيارتها أثناء تنقلّه في بلاد الشّام حيث زار مقام الشيخ حامد العطار الواقع بالقرب من قلعة القطرانة ، وفي مدينة دمشق قام السنوسي بزيارة بعض مزاراتها ورافقه في تلك الزيارات كلاً من الأمير أحمد بن الأمير عبد القادر الجزائري والسيد محي الدين ببن مصطفى والسيد محمد الطالب ، فتحدّث السنوسي عن المزارات الموجودة في المقبرة المعروفة بباب الصغير وزار هنالك عدداً من المزارات المشهورة فيها ، لكنّه أشار إلى وجود عدّة قبور نسبت إلى شخصيات تمّ إثبات أنها مدفونة خارج بلاد الشّام كثلاث من زوجات الرسول وهنّ السيدة حفصة والسيدة أمّ سلمة والسيدة أمّ حبيبة . أمّا بالنسبة للمزارات التي زارها في تلك المقبرة فهي قبور بلال بن رباح ، أسماء بنت أبي بكر ، سكينة أخت الحسين ، أم القاسم بنت علي المرتضى ، عبد الله بن جعفر الصادق ، عبد الله بن علي زين العابدين ، عبد الله بن جعفر الطيار وأخوه علي ، سعيد بن خالد بن الوليد ، حبيب بن مظاهر، هاني بن عروة ، حرّ بن زيد ، الأخوة محمد وإبراهيم وعباس بن مسلم بن عقيل ، القاسم بن الحسن المجتبى ، الشيخ أبو الحطاب حماد ، مقبرة أهل الصفة [52] ، وزار السنوسي قبر نور الدين شهيد ومدرسته ، وذكر أنَّ شيخَ المدرسة في ذلك الحين المدرّس سليم الطيبي ، كما قامَ رحّالتنا بالتوجُّهِ إلى الصالحيّة لزيارة مزاراتها كقبر نبي الله ذي الكفل ، ومغارة أصحابِ الكهف ، ومغارة الأربعين ، ومقام الشيخ محي الدين بن عربي، وقبر الإمام ابن مالك صاحب الألفية النحوية وبجواره قبر ابنه ، مقام السيد صالح أيوب والسيد محمد أيوب ، ومقام الشيخ عبد الغني النابلسي [53].

**4 . المظاهر الثقافية :**

اهتمّ السنوسي اهتماماً ملحوظاً بالنواحي الثقافية والعلمية ، فكان شديدَ الحُرْصِ أثناء زيارته لكلّ من دمشق وبيروت على الاطلاع على النشاط العلمي الحاصل في كلَّ مدينةٍ ، ففي دمشق زار السنوسي مكتبتها ومطبعة الكتب الابتدائية وبعض مدارسها الابتدائية والرشدية برفقة السيد طاهر بن صالح الجزائري[54] مفتش المعارف في دمشق ، فناقش

---

**([50]) المصدر السابق ، ص 274.**

**([51]) المصدر السابق ، ص 280.**

**([52]) المصدر السابق ، ص . ص 312 . 313 .**

**([53]) ورد في الرحلة الحجازية باسم مقام عبد الغني النابلي**

**([54]) طاهر الجزائري (1268. 1338هـ/ 1852. 1920م) : طاهر بن صالح بن أحمد بن موهوب الجزائري السمعوني الجزائري ، من أكابر العلماء باللغة والأدب في عصره ، أصله من الجزائر ، مولده ووفاته في دمشق ، كان مولعاً باقتناء المخطوطات والبحث عنها ، فساعد في إنشاء دار الكتب الظاهرية في دمشق ، كما ساعد في إنشاء المكتبة الخالدية في القدس ، وكان أيضاً من أعضاء المجمع العلمي العربي ، كما سمّي مديراً لدار الكتب الظاهرية ، كان يتقن الشيخ طاهر عدة لغات شرقية كالعربية والسريانية والعبرية والتركية والفارسية ، له عشرين مصنفاً منها الجواهر الكلامية في العقائد الإسلامية ، وتسهيل المجاز إلى فن العمى والألغاز . الزركلي ، خير الدين ، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء ، 8 أجزاء ، الطبعة السادسة عشرة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 2005م ، الجزء الثالث ، ص . ص 221. 222 .**

أساتذتها وامتحن تلاميذها حيث أبدى إعجابه بمستوى الطلاب ، وأشار إلى أنّ المدارس في دمشق قسمين " منها ما يختصّ بالذكور المسلمين وهي خمسٌ وسبعون مدرسة ، ومنها ما يختصّ بالبنات المسلمات وهي ثلاثون مدرسة ، وقد أقامت الحكومة بها أربع مدارس رشدية ومكتباً حربياً استعدادياً " [55] ، كما تحدّث السنوسي عن الحكواتي الذي يجتمع الدمشقيون حوله كلَّ مساءٍ في المقاهي ، وأبدى إعجابه بالقصص التاريخية التي يرويها ذلك الشخص " وقد حضرت ليلاً في تشخيص تياترو باللسان العربي في وقائع تاريخية صاحبه أبو خليل القباني ، وكان إنشاء روايته في غاية الفصاحة وشعر أناشيده في غاية الرقة وأغانيه في غاية الانتظام ، فلم أرَ أوقْعِ منها فيما رأيت بأوروبا والبلاد العثمانية " [56] .

ووصفَ السنوسي أحوالَ العلماءِ والمدِّرسين في بلاد الشام عموماً ودمشق خصوصّاً ، فاستغرب عدم تخصيص راتب أو معاش للمدّرسين والمعلّمين وعدم اهتمام الدولة بنشر العلم " وخلاصة ما أقواله في شأن المعارف الإسلامية إنّها ليست على ما يجب لمثل ذلك البلد الذي سكّانه في أعلى درجات التهذيب وليس للعلماء هنالك معاش منتظم ولا لتعليمهم اهتمام من جهة الدولة ، فالعالِمُ يقرئ في بيته أو في أحد المساجد أو في الجامع الأموي احتساباً والمتعلّم يأخذُ عنه ما تدعوه إليه رغبته وحاجته [57] .

وفي مدينة بيروت قام السنوسي بزيارة معظم المطابع والمجلات والمدارس الموجودة فيها ، ومنها مطبعة مجلة ثمرات الفنون ، والمطبعة الأمريكانية ، والمدرسة العربية ، ومجمع دائرة المعارف ، وأشاد بالدور الكبير التي تلعبه المدارس والمطابع والمجلات في نشر المعارف العربية " وقد اطَّلعتُ هنالك على جميع طُرُقِ نشرِ المعارف العربية بما زادني سروراً في الاعتناء بشأنها " [58] ، كما أشار إلى العناية الكبيرة التي تَلْقاها اللغةُ والآداب العربية في بلاد الشّام عموماً وبيروت خصوصّاً " وهنا أذكر ما وجدت عليه البلاد الشّاميّة عموماً وبيروت خصوصّاً من الاعتناء باللغة العربية والآداب العربية والتوسّع في فنون الإنشاء من الإرسال والنشر والنَّظْمِ بما تقتضيه المكاتبات والمراسلات والمحاضرات " [59] .

أَمَّا بالنسبة للعلماء الذين اجتمع بهم السنوسي نذكر منهم في دمشق الأمير عبد القادر الجزائري ، والشيخ سليم العطار [60] ، والشيخ سليم الطيبي[61] ، والشيخ أبي بكر العطار[62] ، والشيخ محمد الطنطاوي[63]. وفي مدينة بيروت

---

**([55]) السنوسي ، الرّحلة الحجازية ، الجزء الثاني ، ص 315 .**

**([56]) المصدر السابق ، ص 315.**

**([57]) المصدر السابق ، ص 316 .**

**([58])السنوسي ، الرحلة الحجازية ، الجزء الثاني ، ص 321 .**

**([59]) المصدر السابق ، ص 325.**

**([60]) سليم العطار (1231هـ / 1815م . لايوجد تاريخ دقيق لوفاته ) : هو الشيخ أبو محمد بن حامد بن أحمد بن عبيد بن عبد الله بن عسكر العطار ، ولد في دمشق في سنة 1231هـ / 1815م ، ونشأ في بيت جده ووالده وتتلمذ على يد أشهر علماء دمشق ومشايخها كالشيخ عبد الرحمن الطيبي والشيخ سعيد الحلبي ، وبرع في العلوم الفقهية والحديث . للتفصيل السنوسي ، الرحلة الحجازية ، الجزء الثالث ، ص .ص 237 . 244.**

**([61]) سليم الطيبي (لايوجد تاريخ دقيق لولادته .1300هـ/1883م) : ولد في مدينة دمشق ، ونشأ فيها ، وتتلمذ على يد مشاهير علمائها وفقهائها ، له عدة مؤلفات من أشهرها الفيوضات الرحمانية في الأحكام القرآنية ، توفي في دمشق في سنة 1300هـ/1883م . للتفصيل البيطار ، عبد الرزاق البيطار، حلية البشر في أعيان القرن الثالث عشر ، حققه ونسقه وعلّق عليه حفيده محمد بهجت البيطار ، 3 أجزاء، دار صادر ، بيروت ، 1991م ، الجزء الثاني ، ص 97.**

التقى السنوسي بعدد من علمائها وأدبائها المشهورين الذين ينتمون إلى أسر عريقة مشهورة بالعلم [64] ، كعبد القادر القباني [65]، وإبراهيم الأحدب [66] مؤسس جريدة ثمرات الفنون ، وبطرس البستاني وولده سليم [67] ، والأمير محمد بن الأمير عبد القادر الجزائري [68]، والشيخ يوسف الأسير [69].

---

**([62]) أبي بكر العطار (1251هـ/1835م / لا يوجد تاريخ دقيق لوفاته ) : هو الشيخ أبو بكر بن حامد بن أحمد بن عبيد بن عبد الله بن عسكر العطار ، ولد في سنة 1251هـ / 1835م ، ونشأ بين يدي والده وآل بيته العلماء ، وتتلمذ على يد بعض علماء دمشق كالشيخ حسن البيطار وعبد الرحمن بايزيد بالإضافة إلى والده ، وسافر إلى مصر فأكمل تحصيله هناك ، ثم انتقل إلى الحجاز، قبل أن يعود إلى دمشق . للتفصيل السنوسي ، الرحلة الحجازية ، الجزء الثالث ، ص .ص 249 . 252.**

**([63]) محمد الطنطاوي (1246هـ/1830م/ لايوجد تاريخ دقيق لوفاته) : هو الشيخ أبو عبد الله محمد بن مصطفى بن علي الشتوالي المشهور بالطنطاوي ، ولد في طنطا بمصر سنة 1246هـ / 1830م ، ثم ارتحل إلى الشام ، فزار كل من دمشق وحلب ، وتتلمذ على يد بعض علماء الشّام ومشايخها كإبراهيم الباجوري والشيخ علي القوسي ، ثم عاد إلى موطنه ، لكنه عاد مجدداً إلى بلاد الشام سنة 1266هـ/1849م ، كما زار كل من الحجاز وقونية . للتفصيل السنوسي ، الرحلة الحجازية ، الجزء الثالث ، ص . ص 245 . 247.**

**([64]) من أشهر العائلات الإسلامية في بيروت في العهد العثماني الأزهري ، الأسطة ، الأحدب ، الأسير ، بيضون ، بيهم ، إدريس، الجمّال ، الجندي ، حَبَّال ، حمد ، طربيه ، خضر ، الخطاب ، الحصّ ، حلاّق ، الحلواني ، الحوت ، حوري ، خالد ، رمضان ، الخياط ، الراعي ، الرافعي ، الرفاعي ، عساف ، القضماني ، ميرزا ، ميقاتي ، النحاس ، قدورة ، قرنفل ، قباني ، القصاب ، مغربي .... ، للتفصيل يرجى العودة إلى الحلاق ، حسان ، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والسياسي في بيروت والولايات العثمانية في القرن التاسع عشر ، الدار الجامعية ، (د.م) ، 1987م ، ص. ص 15. 17.**

**([65])عبد القادر القباني (1264. 1354هـ / 1848. 1935م) : هو عبد القادر بن مصطفى بن عبد الغني القباني ، من أعيان بيروت ، ولد في هذه المدينة بيروت وتوفي فيها ، أصدر جريدة ثمرات الفنون وهي جريدة أسبوعية استمرت في الصدور لمدة 33 عاماً من (1875. 1908م) ، وهو أحد مؤسسي جمعية المقاصد الخيرية ، كما تولى رئاسة المجلس البلدي في مدينة بيروت وعين مديراً للمعارف ومديراً للأوقاف الإسلامية في هذه المدينة . الزركلي ، الأعلام ، الجزء الرابع ، ص46 .**

**([66])إبراهيم الأحدب (1240 . 1308هـ / 1824 . 1891م) : هو إبراهيم بن علي الأحدب الطرابلسي ، شاعر وأديب لبناني، ولد في مدينة طرابلس ونشأ فيها ، ثم انتقل إلى مدينة بيروت ، لكنه ما لبث أن عاد إلى طرابلس بسبب اشتعال الأحداث الدموية في سنة 1860م ، ثم عاد مجدداً إلى بيروت بعد انتهاء تلك الأحداث ، فَعُيّن نائباً في محكمتها الشرعية ، ثم كاتباً أولاً فيها ، كما تولى تحرير جريدة ثمرات الفنون ، ثم انتُخِبَ عضواً في مجلس المعارف في بيروت ، ومن أشهر مؤلفاته كشف الأرب عن سر الأدب ، مقامات في الأخلاق ، وله نحو عشرين رواية ، وثلاثة دواوين شعرية ، توفي في مدينة بيروت سنة 1308هـ / 1891م. الزركلي ، الأعلام ، الجزء الأول ، ص 55 .**

**([67]) بطرس البستاني (1234. 1300هـ / 1819. 1883م) : هو بطرس بن بولس البستاني صاحب دائرة المعارف العربية ، وهو عالم واسع الإطلاع ، ولد ونشأ في الديبية من قرى لبنان وتعلم بها قبل أن ينتقل إلى بيروت التي درس فيها آداب العربية واللغات السريانية والإيطالية واللاتينية والعبرية واليونانية . عمل أستاذاً في مدرسة عبيه سنة 1860م ، كما عين ترجماناً في القنصلية الأمريكية في بيروت ، واستعان به المراسلون الأميركيون على إدارة الأعمال في مطبعتهم وعلى ترجمة التوراة من العبرية إلى العربية ، واشتغل بالتأليف فصنف كتاب محيط المحيط ، ثم قام باختصاره إلى قطر المحيط ، وله أيضاً كشف الحجاب في علم الحساب ومسك الدفاتر وتاريخ نابليون ومفتاح المصباح في النحو ، وأنشأ مستعيناً بابنه الأكبر سليم أربعة صحف وهي نفير سوريا والجنان والجنة والجنينية ، وأعظم آثاره كما ذكرنا سابقاً دائرة المعارف التي أكمل منها ستة مجلدات قبل وفاته ، ثم أكمل ابنه سليم عمل أبيه فأضاف الجزأين السابع والثامن . الزركلي ، الأعلام ، الجزء الثاني ، ص 58 .**

**([68]) الأمير محمد بن الأمير عبد القادر الجزائري (1256. 1331هـ / 1840 . 1913م) : هو محمد بن محمد بن الأمير عبد القادر الجزائري ، نشا وعاش في مدينة دمشق ، عكف على سيرة أبيه ، فجمع ما تفرق منها وسماها تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر ، وله أيضاً عقد الأجياد في الصافنات الجياد . الزركلي ، الأعلام ، الجزء السادس ، ص 213 . 214.**

**([69]) يوسف الأسير (1232. 1307هـ / 1817. 1889م) : هو يوسف بن عبد القادر الحسيني الأزهري من بني الأسير ، ولد يوسف في صيدا ، ثم انتقل إلى دمشق قبل أن يعود مجدداً إلى صيدا ويتعاطى التجارة ، ثم توجه إلى القاهرة فدرس في الأزهر لمدة سبع سنين ،**

**5 . المظاهر العمرانية :**

قدّم السنوسي في رحلته وصفاً لبعض المنشآت العمرانية في مدينة دمشق كالحمّامات التي عدّها " من أفخر الحمّامات، يبلغ عدُدها نحو الستين حَمَّاماً ، ودخلت منها إلى حَمَّام الخيَّاطين فإذا هو قد جمعَ النَّمط التركيّ والنَّمط العربيّ مع الاتِّساع وحسن مخادع مبلط بالمرمر والرخام " [70]، والخانات والقهاوي التي ذكر أن عدد كل منها يصل إلى أكثر من مائة وهي

مختلفة في الحسن والاتساع " [71] ، كما أبدى السنوسي إعجابه بالطرق الموجودة في مدينة دمشق والتي ذكر أنها في غاية الاتّساع . أمّا بالنسبة للبيوت الدمشقية فوصفها رحّالتنا بأنّها في " غاية من الانتظام والتحسين ، ولبعضها قاعات في وسطها بركة ماء " [72].

وتحدّث السنوسي عن الجامع الأموي الذي عدّه من أعظم جوامع بلاد الشّام ، وقدّم لمحةً مختصرةً عن تاريخِ هذا المسجد والمراحل التي مرَّ بها قبل أنء يقومَ الخليفةُ الأمويُّ الوليدُ بن عبد الملك ببنائه على الشكل الحالي ، وتحدّثَ عن مساحة هذا الجامع وأروقته وزخارفه وأبوابه وقبته ومآذنه حيث يقول " فكان طوله من الشرق إلى الغرب مائتي خطوة وعرضه من الشمال إلى الجنوب نحو مائة وخمسين خطوة ، وله رواق يحيط بجهاته الأربع .... وأرضه مفروشة بالرخام الملون وبصحنه بركتان على كل واحدة قبة قائمة على أعمدة .... وفي وسط السقف قبّة شاهقة مغطاة بالرصاص وتُسمَّى قبّة النسر لكون الرواقين عن يمينها وشمالها كجناحين لها ، وفي وسط بيت الصلاة قبّة تُسمّى قبة النبي يحيى ، وبحائطه القبلي أربعةُ محاريبَ لأصحابِ المذاهبِ الأربعة ، وبه مشهدُ الإمام علي والحسين وعائشة رضي الله عنهم وله ثلاثُ مآذنَ .... وله ثلاثُ أبوابٍ ، ففي جهةِ القبلة بابُ العبرانيّةِ، ويُسمّى بابَ الساعاتِ ، وبابَ الزيادةِ ، وفي جهة الغرب بابُ البريدِ ، وفي جهة الشرق بابُ جيرون ، وفي جهة الشمال بابُ الفراديس ، وبابُ السلسلة أو بابُ الكاملة ، وبابُ آخر صغير، وبه عدد عظيم من المؤذِّنين ، وله أئمة من المذاهب الأربعة يصلّون به يومياً ويتناوبون الجمعة " [73]، وقد أشار السنوسي إلى تَعرُّض المسجد الأموي إلى عدّة حرائق ، وختم رحالتنا حديثَه عن المسجد الأموي بالإشارة إلى أنَّ عددَ مساجدِ دمشق تتجاوز المائة والخمسين مسجداً [74] .

**خاتمه :** قدم السنوسي في كتابه الرحلة الحجازية الكثير من المعلومات الهامة المتعلقة بالأوضاع العامة في بلاد الشام، فمن الناحية السياسية أشار إلى فقدان الأمن وانتشار اللصوص وقطاع الطرق ، وكثرة اعتداءات البدوعلى القرى والمدن القريبة منهم ، فضلاً عن ازدياد النفوذ المحلي على حساب تراجع السلطة المركزية للدولة العثمانية في بعض المناطق من بلاد الشام ، أما من الناحية الاقتصادية فتحدث السنوسي عن الفوائد الكبيرة التي يجنيها سُكان بلاد الشّام من

---

**ليرجع بعد ذلك إلى بلده ، ثم توجه إلى طرابلس حيث أقام فيها ثلاث سنوات تولى خلالها رئاسة كتاب محكمتها الشرعية ، ثم تولّى منصب الإفتاء في عكا ، كما عُيّن مدعياً عاماً لمدة أربع سنوات في جبل لبنان ، كما سافر إلى الآستانة وتولى فيها رئاسة تصحيح الكتاب في نظارة المعارف وتدريس العربية في دار المعلمين ، ثم عاد مجدداً إلى بيروت فعُيّن معاوناً لقاضيها ومدرساً في بعض مدارسها كمدرسة الحكمة والكلية الأمريكية ، وتولى رئاسة تحرير جريدتي ثمرات الفنون ولسان الحال ، ومن أشهر كتبه رائض الفرائض وشرح أطواق الذهب وإرشاد الورى .الزركلي ، الأعلام ، الجزء الثامن ، ص 238، 239.**

**([70]) السنوسي : الرّحلة الحجازية ، الجزء الثاني ، ص . ص 314 . 315 .**

**([71]) السنوسي : الرّحلة الحجازية ، الجزء الثاني ، ص . ص 314 . 315 .**

**([72]) المصدر السابق ، ص . ص 314 . 315 .**

**([73]) المصدر السابق ، ص 309 . 310.**

**([74]) المصدر السابق ، ص 311.**

خلال مرور قافلة الحجّ في مُدُنِهم وقُراهم ، أما من الناحية الثقافية فقد قدم السنوسي الكثير من المعلومات عن النشاط العلمي في دمشق وبيروت حيث زار العديد من المدارس والمطابع والمجلات والجرائد الموجودة في تلك المدن ، كما التقى بعدد كبير من المفكرين والأدباء ، وفيما يتعلق بالناحية الاجتماعية أشار السنوسي إلى بعض العادات والتقاليد في بلاد الشام ، كَكَرَمِ أهل بلاد الشّام عموماً ودمشق خصوصّاً ، وغلاءِ المَهْرِ في بعض المناطق ، إضافةً إلى الإشارة إلى بعض المزارات والأضرحة الموجودة في المدن التي زارها .

**References** :


- Al- Bitar ,A, The Ornament of Human Beings in the Notables of Thirteenth Century , edited , coordinated and commented one by his grandson ,Muhammad Bahjat Al-Bitar , 3 part ,Dar Sader , Beirut , 2005 .
- Abdel Salam , A , Tunisian Historians in the 17th 18th 19th , Centuries , Translated from French to Arabic by Ahmad Abdel Salam and Abdel Razzaq Al-Heliwi , Tunisian , Academy of Sciences and Arts ,House of Wisdom , Tunis , 1993 .
- Alhalaaq ,Hassan, Economic, social and political history in Beriut and the Ottoman states in the nineteenth century, University house , 1987.
- Ahmad ,R,A, The Journey and the Muslim Travellers , Dar Al bayan Al Arabi , Jeddah
- Al-Qayti,Muhammad Abdul-Jawad, Al-Basham breath in the trip to AL-Sham . Arab Pioneer House, Beriut , 1982.
- Al-Senussi , M, Al-Rahla Al-Hijazi , Investigated by Ali Al-Shoufi , 3 part , the Tunisian Company for Distribution , Tunis , 1978 .
- Al-Senussi ,M, Masamarat Al-Zarif with good definition , investigation and commentary by Sheikh Muhammad Al-Shazly Al- Nafeer ,Dar Bou Salama for printing , publishing and distribution Tunisia .
- Al- qassatly ,N ,Al- Rawda Al-Singing in Damascus Al-Fayhaa , second edition, Dar Al-Raed Al-Arabi , Beirut , 1982 .
- Al- Zarkali ,Kh , Al-Alam, a dictionary of translation for the most famous men and women ,8 parts , sixteenth edition , Dar Al-llm for Millions , Beirut , 2005 .
- Hosni , M ,H , The Travel Literature of the Arabs , second edition , Dar Al-Andalus , Beirut , 1983 .
- Hussein, M ,F , Travel Literature , the World Knowledge series ,Kuwait , 1989 .
- Kassab ,A ,The Contemporary History of Tunisia 1881-1965 , Arabization of Hamada Al-Sahli , first edition , Tunisian Distrabution Company , Tunis , 1986.
- Mahfouz ,M, Translations of Tunisian Authors , 5 volumes , first edition Dar Al-Gharb Al-Islami , Beirut , 1982 .
- Rafiq ,A,K, The Shami Hajj Caravan , Journal of Historical Studies , Damascus University , 1981 .
- Sajih ,N , Economic life in the city of Damascus in the middle of the nineteenth century , Ministry of Culture , first edition , Damascus ,1995 .
- The Geographical Dictionary of the Syrian Arab Country , supervised by General Mustafa Tlass , 5 volumes , first edition , 1992 .
- Zake , M ,H , Muslim Travelers in the Middle Ages , First edition , Nawabegh Al – Fikr Company , Cairo ,2008
- Ziada ,M, Arab Journeys and Travels , Arab thought Magazine ,Beirut , 1988 .